إسرائيل ضيف الشرف في معرض باريس الدولي للكتاب من 14 إلى 19 آذار/مارس:

الصالون فرنسي وضيوف الشرف إسرائيليون والجدل حول المشاركة عربي

باريس ـ «القدس العربي»
ـ من فوزي سعد الله:

أثارت مشاركة إسرائيل كضيف الشرف في صالون باريس الدولي الثامن والعشرين للكتاب من 14 إلى 19 آذار/مارس المقبل، الذي سيستقبل 1200 ناشر و3000 كاتب، جدلا كبيرا لم يهدأ بعد، خاصة منذ أن أعلن عدد من الدول العربية والناشرين والكتاب العرب مقاطعته. المقاطعة استنكرها شيمون بيريز، رئيس الدولة العبرية، عند وصوله إلى باريس حيث سيشارك في تدشين الصالون مساء الخميس، بلهجة اعتبرها عدد من الصحافيين العرب في فرنسا شتيمة للعرب، وإن كان العرب تعودوا على أكثر من الشتائم من طرف إسرائيل.

فرنسا تقول إنها لا تفهم المقاطعة العربية لأن معرض باريس الدولي للكتاب فرصة للحوار والنقاش خصوصا وأن من بين الكتاب الـ39 الإسرائيليين الذي يستضيفهم المعرض شخصيات مؤسسة ومنتمية لحركة «السلام الآن» الإسرائيلية التي تدافع عن مبدأ إقامة دولة فلسطينية إلى جانب الدولة العبرية. ويذكّر المنظمون والمثقفون الفرنسيون الذين يدافعون عن الموقف الفرنسي، الموقف الذي يؤاخذ عليه العرب الاحتفاء بالذكرى الستين لتأسيس دولة إسرائيل من خلال دعوة هذا البلد «جلاد» الشعب الفلسطيني، على حد تعبير الشاعر طه المتوكل رئيس اتحاد الكتاب الفلسطينيين، كضيف الشرف في هذه التظاهرة الثقافية الدولية الكبيرة. يذكر المنظّمون بأن من بين المشاركين في صالون باريس آموس أوز ومؤسس حركة «السلام الآن» ودافيد غروسمان وسيد قشوع الإسرائيلي العراقي الأصل...

كريستين ألبانيل وزيرة الثقافة والاتصال الفرنسية تأسفت الأحد 2آذار/مارس عن النداءات إلى المقاطعة بسبب استضافة إسرائيل كضيف الشرف مشددة على أن الصالون الدولي للكتاب فضاء للتلاقي والنقاش الحر و«ملائم للحوار الأكثر انفتاحا ما بين الثقافات» وأن الكتاب الإسرائيليين الـ39 الذين يستضيفهم الصالون رسميا إنما يستضافون لأعمالهم وإنجازاتهم الأدبية. وحرصت الوزيرة على التذكير بأن بلدها استضاف لبنان والأدب اللبناني كضيف شرف في تظاهرة ثقافية أخرى خلال خريف 2007 نظمها المركز القومي للكتاب وأن فرنسا ستواصل استضافتها لكل الآداب دون إقصاء ولا ممنوعات مثلما تقتضيه تقاليد الانفتاح والتبادل الفرنسية.

وزارة الخارجية الفرنسية التي يقودها بيرنارد كوشنير، الذي وصفه وزير جزائري قبل بضعة أشهر بكونه أحد عناصر اللوبي اليهودي في فرنسا، أصدرت بيانا وصفت فيه المقاطعة والانتقادات العربية بـ«الجد مؤسفة».

من جهتها، أعلنت، وعلى نفس النغمة، «النقابة الوطنية للكتاب» الفرنسية أن «استضافة أدب اجنبي في صالون باريس للكتاب ليس مسعى سياسيا بل اقتراح حوار بين الثقافات وأن مقاطعة كُتّاب (إسرائيل) بالعكس لن تقدم الأشياء في شيء...».

وأضافت النقابة الوطنية للكتاب أن «تشريف إسرائيل في 2008 تم الإعلان عنه منذ أكثر من عام وأن البلدان التي ألغت مشاركتها كانت طلبت حجز أجنحتها من قبل وهي على علم بذلك»، أي بالمشاركة الإسرائيلية كما بمستواها. وأمام الجدل الكبير الذي أثارته المشاركة الإسرائيلية وبمستوى «ضيف الشرف»، يبدو أن النقابة الوطنية للكتاب، التي لم تقدم مبررا مقنعا لعدم دعوة الثقافة الإسرائيلية الناطقة باللغة العربية إلى باريس سواء كان منتجوها إسرائيليين أو عرباً، عازمة على تعزيز الإجراءات الأمنية في محيط مقر الصالون الدولي للكتاب في «بورت دو فيرساي» جنوب العاصمة باريس لمواجهة الطوارئ.

لا يعني هذا الموقف وقوف المثقفين الفرنسيين بالإجماع في صف وجهة النظر الرسمية التي أعلنتها وزيرة الثقافة كريستين آلبانيل. فالناشر والكاتب الفرنسي ميكائيل باريونتي (Mikaël Parienté.)، وفي وجهة نظر عنونها بـ: «أدب عبري أم إسرائيلي؟» عبّر عنها على صفحات يومية ليبراسيون الفرنسية، قال: «يجب الاعتراف بأننا إذا كنا حريصين على الالتزام بالانسجام في المواقف وخلق شروط النقاش الحر واللقاءات الخصبة فإن هذا التشريف لإسرائيل من خلال الكتابات المنجزة باللغة العبرية لوحدها لم يكن الخيار الأكثر سلامة، ومهما قيل عنه يشكل موقفا سياسيا».

المواقف العربية المقاطعة ترى في استضافة إسرائيل كضيف شرف تجاهلا لأرواح الفلسطينيين التي أزهقت وتزهق يوميا ولأرواح ضحايا الحرب الإسرائيلية على لبنان في صائفة 2006.

من فلسطين، قال الشاعر المتوكل طه، رئيس اتحاد الكتاب الفلسطينيين، المستقر في رام الله في الضفة الغربية مُحتجاً: «لا يليق بفرنسا بلد الثورة الكبرى وحقوق الإنسان استضافة بلد يمارس الاحتلال والعنصرية». وفي تصريح لإذاعة مونت كارلو الدولية في باريس، رفض تبرير تكريم إسرائيل بحجة أنه تكريم للثقافة الإسرائيلية، وقال: «إن هذا التبرير لا جدوى منه (...)، لأنه لا يمكن الفصل بين الأصابع والكف، ولأن الثقافة الإسرائيلية هي التي تنتج قتل الأطفال». وطعن المتوكل طه في جدية ومصداقية المثقفين الإسرائيليين الذين يصنّفون ضمن دعاة السلام بين الدولة العبرية والفلسطينيين في إشارة إلى عاموس أوز ودافيد غروسمان وغيره قائلا: «هؤلاء الذين يدعون بأنهم يساريون ويقفون مع كتلة السلام في إسرائيل، عند الحديث عن الحقوق والثوابت المشروعة للشعب الفلسطيني يركبون فرس اليمين الإسرائيلي، ويسبقون اليمين الإسرائيلي، وعندما يتعلق الأمر بالقدس يتمسكون بها أكثر من ليبرمان، أما عندما يتعلق الأمر بحق اللاجئين في العودة فيجن هؤلاء ويعملون على أن لا يعود أي لاجئ...».

من جهته أعلن اتحاد الكتاب المصريين أن خيار تكريم إسرائيل في صالون باريس الدولي للكتاب «غير مقبول» في الوقت الذي تقوم فيه الدولة العبرية، «أكثر من أي وقت مضى»، بـ«دوس حقوق الإنسان» في تلميح إلى العملية الإسرائيلية الأخيرة في غزة التي أطلق عليها القادة الإسرائيليون أنفسهم صفة «المحرقة».

كما دعت المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم من الرباط في المغرب الدول الإسلامية الخمسين العضوة فيها إلى عدم المشاركة في صالون باريس الدولي للكتاب تفاديا لـ«انعكاسات سلبية» على العلاقات «بين فرنسا والعالم الإسلامي». وتبين إلى حد الآن أن الجزائر، تونس المغرب، لبنان، سورية، الأردن، المملكة العربية السعودية، إيران، اليمن، وسلطنة عمان «في آخر لحظة»، واتحاد الكتاب المصريين لن يشاركوا في صالون باريس الدولي الثامن والعشرين للكتاب. لكن عددا من الناشرين والكتاب في هذه البلدان التي قررت المقاطعة عازمون على الذهاب إلى باريس ولكل مبرراته.

إذا كانت وزيرة الثقافة المغربية ثريا جبران قد أعلنت رسميا مقاطعة صالون باريس للكتاب لأن «الحكومة المغربية تحترم مشاعر المغاربة والعرب، على حد تعبيرها، ولأن العديد من الجيران في المغرب العربي تراجعوا عن الذهاب» إلى باريس ورغم قول مسؤول سام في وزارة الثقافة المغربية إن الذكرى الستين لقيام دولة إسرائيل هي أيضا ذكرى «60 سنة (...) من العنف ضد الشعب الفلسطيني وأن المغرب يساند فلسطين...»، فإن ذلك لم يمنع كتّابا مغاربة من إعلان المشاركة في صالون باريس على غرار الكاتب الروائي المعروف الطاهر بن جلون وفؤاد العروي والكاتب يوسف جبري الذي قال إنه «ككاتب عربي» سيرد بالإيجاب على دعوة منظمي الصالون إياه إلى المشاركة، لأن، على حد تعبيره، على الرغم من «قيام الجيش الإسرائيلي بتنفيذ مجزرة حقيقية في قطاع غزة مع استمرار سقوط الصواريخ على إسرائيل، يجب الإبقاء على الحيز الصغير الذي تبقّى للتلاقي والاستماع إلى بعض والتبادل» مع تأسفه على عدم استدعاء الكتاب الفلسطينيين... وسيشارك يوسف جبري في صالون باريس بكتابيه Le Manuscrit d'Hicham: destinées marocaines (مخطوط هشام: قدر مغربي) و Réflexions clandestines (أفكار سرية) اللذين نشرهما في 2007 عند منشورات Cygnes (سِيغْنْ) الفرنسية.

وفي الجزائر، لم يكن الأديب ومدير المكتبة الوطنية الجزائرية أمين الزاوي ينوي المقاطعة رغم قرار النقابة الوطنية للناشرين والمركز الثقافي الجزائري في العاصمة الفرنسية الذي يشرف على إدارته ياسمينة خضراء، الروائي المعروف الذي يكتب باللغة الفرنسية، بعدم الذهاب إلى صالون باريس إلا بعد أن حسمت وزيرة الثقافة خليدة التومي المسألة رسميا. ولم يمنع قرار الوزارة الروائي الفرانكوفوني بوعلام صنصال، الذي عوّد الفرنسيين وجزائريي فرنسا على التهجم في المنابر والنوادي والصحف الفرنسية على بلاده وشعبه وثقافته «لنيل رضا ناشريه والفرنسيين بشكل عام والظهور بمظهر النوراني الذي يواجه ظلامية أهله» كما يقول أحد منتقديه من المثقفين المحسوبين على الاتجاه العروبي، من إعلان مشاركته في صالون باريس هو والكاتبة مائسة باي. هذه الأخيرة أوضحت لصحيفة «لوموند» الفرنسية أنها ستأتي إلى باريس «ليس كمواطنة جزائرية بل ككاتبة». ودعت صاحبة رواية Bleu, Blanc, Vert (أزرق، أبيض وأخضر) الصادرة عن منشورات L'Aube (لوب) في باريس إلى عدم وضع كل الكُتّاب الإسرائيليين المدعوين إلى صالون باريس في سلة واحدة لأن من بينهم كُتّاباً يعارضون سياسة بلادهم ويجب الإصغاء إليهم، بل يجب «التعامل معهم ككتاب وليس كمواطنين» متأسفة على «الخلط» القائم بين صفتي «الكاتب» و«المواطن». ويتشابه مع هذه المواقف موقف الروائي المصري جمال الغيطاني، الذي نشرت العديد من أعماله باللغة الفرنسية عند منشورات (Actes Sud أكت سود)، حيث وصف الدعوة إلى المقاطعة بـ«ممارسة طفولية للسياسة». وعبّر علاء الأسواني صاحب «عمارة يعقوبيان» عن «صدمته» و«أسفه» لكون إسرائيل ضيفة الشرف، وذلك نظرا لسياستها تجاه الفلسطينيين واللبنانيين، لأن «استضافة دولة متهمة بجرائم ضد الإنسانية خطأ في غاية الخطورة» على حد قوله. وأضاف موضحا أن قرار استضافة الدولة العبرية بهذا المستوى وبالتزامن مع الذكرى الستين لقيام إسرائيل (قرار سياسي) وليس أدبيا». لكن الصدمة والأسف عند علاء الأسواني لا يعنيان مقاطعته للصالون الباريسي، بالعكس فهو على موعد مع هذا السوبرماركت العالمي لصناعة الكتاب لتقديم وترويج روايته «شيكاغو» بعد عودته من جولة أدبية في ألمانيا. لكن الأسواني وعد بتوزيع «صور لأطفال فلسطينيين ولبنانيين ضحايا السياسة الإسرائيلية» تعبيرا منه عن عدم رضاه عن تكريم إسرائيل.

كما قال شريف مجدلاني من لبنان إن المشاركة أو عدم المشاركة ليست المهم وكتب في صحيفة L'Orient-Le Jour أن المقاطعة تؤكد من جديد أن البلدان العربية «لم تفهم بعد أن إسرائيل تتغذى إلى حد بعيد من استقالاتنا ومن انعدام وجودنا الثقافي على الساحة الدولية».

ويستشف من عدد من هذه المواقف الفردية أنها ما كانت لتكون لولا حيازتها الضوء الأخضر من الجهات الرسمية أو على الأقل ما كانت لتخالف الموقف الرسمي لو جاءتها إشارة حمراء تمنعها من ذلك مثلما جرى في عدد من الحالات في السابق.

على نفس الخط، اعتبرت هدى بركات الروائية اللبنانية المقيمة في باريس، ومديرة التحرير في «إذاعة الشرق» الناطقة بالعربية في العاصمة الفرنسية، «أيّ شكل من أشكال المقاطعة للأدب عملا ليس عديم الفائدة فحسب بل غبيا» وأضافت هذه الإعلامية والأديبة التي تميل بشكل خاص لأعمال آموس أوز ودافيد غروسمان وإيتامار ليفي: «لن أقاطع الأدب العبري». ومع ذلك لن تذهب إلى حد المشاركة في هذه التظاهرة الأدبية الدولية. السبب؟ هدى بركات ترد: «أن تحتفل إسرائيل بعيد ميلاد نشأتها هذا لا يهمني، لكن صالون الكتاب ليس المكان الخاص بذلك، أندد على غرار أصدقائي اليهود بالسياسة التي تنتهجها الحكومة الإسرائيلية والتي تُعرِّضُهم مرة أخرى للكراهية».

كريستين مازيير الممثلة العامة للنقابة الوطنية للنشر الفرنسية فسرت قبول هؤلاء الكتاب العرب بالمشاركة «بصورة فردية»، على حد تعبيرها، في صالون باريس للكتاب بكون الصالون يمثل بالنسبة إليهم «واجهة لا يمكن تجاوزها» للتعريف بأعمالهم وتسويقها مشددة على أن هؤلاء يعانون من «ضغط معنوي ثقيل» بسبب مواقفهم وخاصة هؤلاء الذين يقيمون في بلدانهم الأصلية.

أما في إسرائيل، إذا كانت الروائية ميشال غوفرين نددت بـ«الخلط القائم بين السياسة والأدب» فإن المؤرخ المعروف إيلان باب فاجأ الجميع بالإعلان أنه لن يأتي إلى باريس «لاستحالة مشاركته أخلاقيا في صالون موضوعه الرئيسي الذكرى الستون لميلاد دولة إسرائيل». ولا يبدو أن موقف إيلان باب حالة استثنائية في هذا البلد. أما آموس أوز الذي أكد مشاركته في صالون باريس مستنكرا موقف المقاطعين فقال إن الذين يرفضون الذهاب إلى صالون باريس «لا يعارضون سياسة إسرائيل وإنما يعارضون وجود إسرائيل في حد ذاته».

في رد فعل منه على المقاطعة العربية، رغم أنها ليست مطلقة كما كانت الأوضاع قبل سنوات عندما كانت إسرائيل تسمى في الأدبيات العربية «الكيان الصهيوني الغاشم»، «استنكر» الفرع الفرنسي للمؤتمر اليهودي العالمي قبل ايام على لسان نائب رئيسه بيرنار غنَاسيَة، اليهودي الجزائري الأصول، الموقف العربي من صالون باريس الدولي للكتاب بسبب تكريم إسرائيل، واستغرب ما أسماه «صمت الكُتّاب الفرنسيين» إزاء ذلك. وتمنى المؤتمر اليهودي العالمي لو وقف الكتاب الفرنسيون بقوة في وجه «المقاطعة» العربية ودافعوا عن استضافة إسرائيل مثلما فعلت شريحة من الكتّاب في إيطاليا رداً على دعوة المقاطعة لمعرض تورينو الدولي للكتاب في أيار (مايو) الذي من المقرر أن تشارك فيه دولة إسرائيل كضيفة الشرف بمناسبة الذكرى الستين لقيامها. ودعا الفرنسيين إلى الإقبال الجماهيري على الصالون «للتذكير أن فرنسا كانت وستبقى بلد الأنوار والديمقراطية».

وعلى كل، مهما بلغت الانتقادات حدة ومهما احتج المقاطعون ومهما قتل الأطفال في غزة أو في الضفة الغربية أو في لبنان، لا شك أن لا أحد من المقاطعين والمنتقدين تصور أن كل ذلك كان سيغير شيئا في الموقف الفرنسي أو الإسرائيلي، لأنه كما قال مثقف عربي في باريس «ماذا تساوي كل الاحتجاجات والدماء العربية في أعين ساركوزي أمام ابتسامة رضا من شيمون بيريز»...

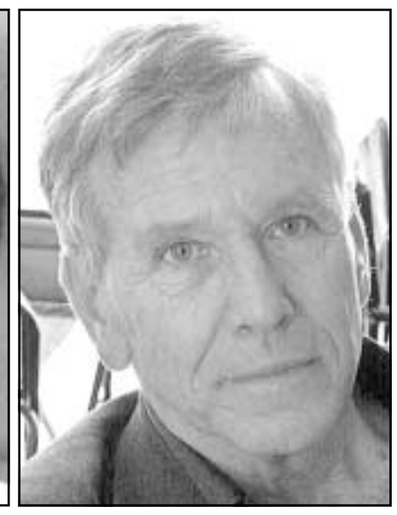

عاموس عوز

ميسا باي

يوسف جبري

الكُتّاب الإسرائيليون المشاركون وقعوا عقدا إجباريا يفرض عليهم القيام بالدعاية لدولة إسرائيل

■ دعا بيني زيفر، الروائي الإسرائيلي، من أصل يهودي تركي، ورئيس تحرير الملحق الأدبي لصحيفة «هآرتس» الإسرائيلية الكتاب الإسرائيليين إلى مقاطعة صالون باريس الدولي للكتاب موضحا أنه كان أول من طالب بالمقاطعة لأسباب قد تختلف عن نظيراتها التي دفعت العديد من البلدان العربية وكتابها وناشريها إلى عدم الذهاب إلى باريس. وقال: «لقد كنت أول من نادى بمقاطعة صالون باريس للكتاب بواسطة عريضة، ومنذ ذلك الحين جرى الكثير من النقاشات والجدالات». غير أن دواعي نداء المقاطعة بالنسبة لهذا الصحافي والكاتب الإسرائيلي، وصاحب مدونة تتمتع بشعبية كبيرة داخل الدولة العبرية، تعود أساسا لمشاكل داخلية إسرائيلية ـ إسرائيلية.

فالمشكلة الأولى بالنسبة إليه تكمن في أن «حكومتنا، على حد تعبيره، وسفارتنا اللتين انتقتا قائمة المشاركين، لم تختارا سوى الكُتّاب الذين ينتجون باللغة العبرية، ما أدى إلى إقصاء فعلي لثلثي الساحة الإسرائيلية، علما بأن هذه الأخيرة تتضمن جالية كبيرة تعبّر باللغة الروسية بالإضافة إلى جالية أداةُ تعبيرها هي اللغة العربية». أما المشكلة الثّانية في نظر بيني زيفر فتتمثل في «الاختيار العشوائي الذي قام به بيروقراطيون في السفارة (الإسرائيلية في باريس) حيث أدى إلى إقصاء وجوه بارزة» على غرار الشاعر ناتان زاخ «رغم أنه يكتب باللغة العبرية!». وذكر بيني زيفر أن إسرائيل تتوفر أيضا على «أدب مكتوب بـ«اليِدِّيشْ»، (...)، وأدب معبَّر عنه باللغة الانكليزية وحتى باللغة الفرنسية»، لم تُفتَح في وجهه أبواب صالون باريس. أما الأدب الإسرائيلي الناطق بالعربية فلم يتطرق إليه أصلا...

أما المبرر الثالث لدعوته إلى مقاطعة صالون باريس، يضيف بيني زيفر، فيكمن في أن «الدولة الإسرائيلية تعتبر الكتّاب رجال دعاية، وتعتقد أنها ما دامت تمولّ تذكرة الطائرة فعلى الكاتب، في تقديرها، أن يقوم بخدمة القضية الإسرائيلية، بل تطالبه رسميا بالقيام بهذه الدعاية بمقتضى عقد تفرض على كل الكتاب توقيعه، وهذا ما جرى مع صالون الكتاب في باريس وصالون الكتاب في تورينو» الإيطالية المقرر تنظيمه في شهر أيار (مايو) المقبل. ولهذا السبب، يضيف بيني زيفر، لم تقدم الدعوة للكاتب الإسرائيلي الكبير يهُوشُوَة (أو يوشع) كنَازْ للذهاب إلى فرنسا «لأنه رفَض التوقيع على هذه الوثيقة!» رغم أن العديد من أعماله تُرجمت إلى اللغة الفرنسية ويكتب باللغة العبرية.

أما بخصوص موقع أدب العرب الإسرائيليين داخل الدولة العبرية، فأكد بيني زيفر ان الملحق الأدبي لصحيفة هآرتس، وهو شخصيا، يبذل قصارى جهده «لتشجيع الشباب العربي الإسرائيلي الذي يكتب باللغة العبرية على الكتابة بنشر إبداعاتهم في الملحق (...)، لكن في نفس الوقت يوجد العديد من العرب الإسرائيليين ينشرون باللغة العربية والذين لأسف لايوجد اي اتصال تقريبا معهم». وبرر زيفر ذلك بكون «الترجمة من العربية إلى العبرية صعبة للغاية، ما يعقد أكثر المبادلات وتقاطع القراءات». أما بقية الفلسطينيين، حسبه، فلا مكان لهم في ملحق هآرتس باستثناء محمود درويش كحالة من الحالات النادرة جدا، ما أدى إلى «وجود هوة كبيرة بين الأدب الإسرائيلي ونظيره الفلسطيني، الذي يتكون في غالب الأحيان وللأسف من شعر قومي و مباشر».

وفسر بيني زيفر العدد المحدود للمقاطعين من الكتاب الإسرائيليين المدعوين إلى صالون باريس، والذي لا يتجاوز في اقصى تقدير أصابع اليد، على غرار هارون شَبْطَايْ وسامي ميخائيل، بكون السفارة الإسرائيلية في باريس قد انتقت بشكل دقيق قائمة المشاركين، بمعنى أن «الذين تم اختيارهم ليسوا من الذين قد يغامرون بالمقاطعة! بل لقد اختيروا لهذا السبب بالذات». وبعبارة أخرى، لأن الكتّاب الذين وقع عليهم الاختيار «امتثاليون ويقبلون الخضوع للقواعد التي حددتها الدولة» عكس المؤرخ إيلان بابْ الذي نادى بالمقاطعة مغردا خارج القطيع ومتسببا في حرج للآخرين محليا ودوليا.

سيلفان عتال
(كاتب صحافي فرنسي من أصل مغاربي)

■ «أنا عادة ضد مبدأ المقاطعة أينما كانت بما في ذلك في إسرائيل. صحيح أن صالون باريس الدولي للكتاب ظهر وكأنه مرتبط بإحياء الذكرى الستين لقيام دولة إسرائيل حتى ولو لم تكن توجد أشياء كثيرة تدعم هذا التصور. لذلك فإن المقاطعة العربية تأتي لتعاقب النفوس المتنورة والذين يدافعون عن الحريات والسلام ويعملون على إحلال ثقافة السلام في العالم. وهذا ما يدفعني إلى القول إن المقاطعة لا معنى لها، وإنها، حتى بالنسبة للعالم العربي، بمثابة طلقة رصاص على الأقدام لأنها تضر بالكتاب والناشرين العرب الذين يفوتون فرصة كبيرة للتعريف بأعمالهم والترويج لها».

الدكتور بدر الدين عرودكي
(مدير المعارض والمتحف في معهد العالم العربي في باريس):

■ «أعتقد حتى الآن أنه لم يدع أي بلد عربي كضيف شرف في صالون باريس للكتاب، وهذا ما أعتبره إهمالا لكل العالم العربي وثقافته وحضارته لحساب دولة لم يُعترف بها من قبل كل دول العالم. تأتي هذه المقاطعة بشكل عفوي، ولم تأت من مؤسسات رسمية بقدر ما جاءت من المجتمع المدني؛ أي من مثقفيه وكُتّابه وناشريه وهم روح وأساس المجتمع العربي، وهذا أمر مهم جدا».

آلان غريش
(مدير لوموند ديبلوماتيك الشهرية):

«لا أريد أن أعبر عن موقفي بخصوص موضوع المقاطعة العربية لصالون باريس للكتاب».

فضاءات ثقافية

«العابرون» رواية لمحمد ابراهيم طه:

تبدل حالات الوعي

محمد سمير عبد السلام*

محمد ابراهيم طه

■ يرتكز محمد إبراهيم طه في نصه الروائي «العابرون»، الصادر عن دار الهلال بمصر، على مساءلة منطقة الوعي في شخصياته، وإعادة تأويلها خارج الحدود الصارمة للذاكرة، والهوية التاريخية، أو الاجتماعية، فالوعي يسهم في قتل النموذج الأول للشخصية، وهو نموذج يعاني من انسحاق، أو جنون، أو موت وشيك، أو رغبة ملحة في الخروج حدوده المعرفية. إن الوعي ينتصر على معرفة الشخصية بهويتها، ومن ثم على معرفتنا كقراء بهذه الشخصية، وذلك عن طريق أمرين: الأول: إبداع نماذج أسطورية مؤولة للشخصيات الأولى، ولكنها تتجاوز الموت من خلاله، كما تستبدل موقع الأصل، وتتسم ببكارة تكوين الشخصية لأول مرة، ولكن دون تحديد دقيق لهويتها، فالمريضة أروى تود الرجوع كأميرة للقصر، وكأنها تحن للوعي الذي يدمر حدودها، ويعيد تكوينها في سياق أول جديد.

الثاني: مساءلة الحدود المعرفية للوعي نفسه، وكأنه ينتج تأويلات تخيلية موازية تؤدي وظائفه بصورة انتشارية، ولهذا أرى أن هذا النص الروائي يقاوم عملية التبئير الداخلي المتنوع من خلالها، فهو يلج الشخصية، ولا يتركنا في حالة اطمئنان لوجودها، فالوعي يسعى لتجاوز نفسه دائما في نماذج تخيلية تتسم بطابع كوني تداخلي، فيمكننا رؤية البطل الطبيب من خلال الشيخ سيد، ونماذج أروى الملكية الأنثوية، كما تتداخل إشارات التصوف، والمعرفة القلبية مع أخيلة راشد، ونعمات.

ولم يخرج النص تماما عن السياق الثقافي للشخصيات، ولكنه أعاد قراءة حدث الموت، أو الانسحاق من خلال تأويل تخيلي سردي للمعرفة القلبية في التصوف، ومن النماذج الأسطورية الكامنة في اللاوعي الجمعي، وقد تشير هذه النماذج الجديدة الخارجة عن سلطة الوعي إلى شخصية عابرة للزمكانية كما يشير كارل يونغ، وربما تتداخل مع إيحاءات الاختفاء -Disappearance كما هي عند جان بودريار، فتقع في منطقة بين الوجود، واللا وجود لتتجاوز أزماتها الواقعية، وحدث الموت من خلال عمليات التخيل التي تسعى لاستبدال كل ما هو معروف وحتمي.

بطل الرواية طبيب يعالج أمراض النساء، ويقوم بعمليات الولادة، ويفرح عندما يخرج الجنين سليما، ويرى فرحة الأم، ورغم حرص السارد على تأكيد هذه الإشارات الإيجابية، مثل السعي للخصوبة، والنشوء المتكرر، فإنه أكثر حرصا على استبدالها، بنشوء آخر للوعي خارج مجال ولادته، وتطوره، وتاريخه، إنه يكرر حدث الولادة دونما تحديد للمولود نفسه، حيث تتعالى العوالم الجديدة فوق تاريخ الانسحاق الإنساني.

في داخل البطل حنين إلى عوالم الوعي البديلة عن تاريخه، فيتساءل عن كل ما مر به من أحداث، ويشك فيها حتى يجد في أدراجه قسيمة زواج، وشهادات ميلاد أطفال نائمين.

إنه لم يجد إجابة نهائية في إدراكه لهذا التاريخ، وهذه الوقائع، فتحول فهمه إلى تأويل تخيلي بكر يستبدل مفردات المستوى الأول للوعي، فالولادة تختلط بالأساطير، وتجدد الموت، والأنوثة تمتزج بالنور، والدماء، بالفضاء المتسع للذات الأسطورية. نحن إذا امام بدايات للشك في الوعي واستبداله بالأداء التمثيلي للمعنى.

لقد كشف بول ريكور عن تحول النظر إلى الوعي حتى صار تأويلا نسبيا معلقا، فالفيلسوف الديكارتي يشك في الأشياء، لكنه لا يشك بأن الوعي ليس كما يبدو لذاته، إذ يلتقي فيه المعنى والوعي بالمعنى، ثم بدأ الشك بالوعي منذ نيتشه، وماركس، وفرويد، فصار الفهم تأويلا، كما صار التأويل معلقا نتيجة تعارض التفاسير (راجع ـ ريكور ـ التحليل النفسي وحركة الثقافة المعاصرة ـ ترجمة منذر عياشي ـ فصول ع 65 ـ شتاء 2005 ص 91).

هكذا يمكن أن نرى ملامح الطبيب التخيلية كتأويل يقاوم معرفته بهويته، فقد سمع أصواتا بين التسبيح، والزقزقة، ثم لمح فتاة من نور، ولم ترد عندما سألها عن اسمها، ثم انفتح المدى أمامه، وشعر أنه يسبح، وتذكر صورة سيد عبد العال. إنها الذات الأخرى التي ترفض التسمية، وحدود الملامسة الصلبة، فهي تمثل اتساع الفضاء كبديل عن المتكلم فيصير وعيه صورة تستبدله، من خلال فعل التأويل التمثيلي، وسنجد في موضع آخر من الرواية أن راشد يعود لجراحه، وواقعه عندما يسأل الملكة أروى عن اسمها.

إن مستويات ما قبل الكلام تتحول في نص محمد إبراهيم طه إلى مستوى سردي بديل عن مستوى القصة، فسياق شخصية راشد يتطور وفقا لهذه المستويات المحولة إلى علامات تخيلية تملك القدرة على الأداء، بل تملك فضاء كونيا أسطوريا يناهض دموية الصراعات اليومية.

يميز روبرت همفري رواية تيار الوعي بارتكازها على مستوى ما قبل الكلام على وجه أخص. تلك التي لا تخضع للسيطرة والمراقبة، والتنظيم المنطقي، ويرى أن الوعي عند فوكنر كان يقود الشخصية بعيدا عن واقع فاسد (راجع ـ همفري ـ تيار الوعي في الرواية الحديثة ـ ترجمة د ـ محمود الربيعي ـ دار غريب 2000 ـ ص 24 و55).

لقد تطور راشد في هذا المستوى الأسطوري مثل باقي الشخصيات التي تقدمت باتجاه التلاشي، ولم ترجع لنقطة التكوين التي يمكن أن تكون المرجع الذاتي الذي يبدأ منه الوعي في العمل، ولكنها حريصة أن يكون هذا المستوى هو نقطة تكوينها، فنحن نتعرف على العلاقة بين راشد، وأروى من خلال هذه العوالم الجديدة، فدم أروى يتمرد على وجودها الواقعي، ولا يستجيب للطبيب لتكتمل العودة، وتؤسس لبداية أخرى.

أما راشد ففي جراحه يرى أروى تمرح مع الأطفال، فيرتفع نهداها الصغيران في انطلاق، وعندما يخشى أن يسقط تاجها الملكي من الاهتزاز، فتضحك، ولا يسقط، ثم تنبت له أجنحة عندما يدخل الحلبة ويرقص.

مثل هذا السياق المرح لا يمكن الفصل فيه بين الجسد، والعالم، والأنا والآخر، فقد صارت الأجسام رموزا متحولة للوعي، والكون، والجسد معا.

هكذا اختلط مسار نهاية أروى بأثر عبد المجيد الذي حدس بموته، فانتشر العواء والصخب، ثم نراها في القاعة الملكية مع راشد الذي لم تقتل جراحه هذه النسخة من وعيه، ويبدو عبد المجيد مضحكا للملوك في القصر ويجوس الحصان الحامل لأروى في الفناء المرمري المتسع.

إن مستوى الموت هو مستوى الولادة الأولى للشخصية تلك التي تجعل من مستويات ما قبل الكلام سياقا كاملا للفعل الوجودي، والعلاماتي في آن.

هكذا نرى فاعلية سيد عبد العال الطيفية في مسار الطبيب، فقد استبدل الرجل الملثم الذي دافع عنه يوم وفاة المريضة عزيزة، وكذلك الطبيب الشرعي الذي برأه، كما ساهم بقراءاته من شراب الوصل للبرهاني في دفع الوعي للذوبان، في بديله التأويلي، بل بدائله مثل النموذج التخيلي لسيد نفسه، وأساطير، أروى، وعلي الدين، وراشد، وعبد المجيد. تلك البدائل التي ساهمت في إبداع مستوى سردي تشبيهي يعمل في أحداث الواقع من داخلها، وتتسع مساحته ليصير سياقا أول متجددا.

---

* كاتب من مصر
msameerster@gmail.com

عدد جديد من مجلة «عمان» الثقافية

عمان ـ «القدس العربي»

عن امانة عمان الكبرى صدر العدد 152 من مجلة «عمان» الثقافية الشهرية متضمنا العديد من المواد الإبداعية والترجمات والحوارات، وكتب رئيس التحرير الكاتب عبدالله حمدان مقالا افتتاحيا بعنوان «من اجل اعادة الاعتبار للمكان السياحي الأردني» جاء فيه: منذ العدد الأول لصدور هذا المنبر الثقافي الأردني أفردنا مساحة شهرية تعنى بالاحتفاء بالمكان الأردني بهدف إعادة الاعتبار له بما يمثله من عمق تاريخي وحضاري لبلدنا اولا، ولأن تلك الأمكنة يمكن ان تشكل عنصر استقطاب سياحي ترفد اقتصاد بلدنا بعوائد مادية تعوضه عن النقص في حقول أخرى كالزراعة والصناعة لمحدودية قدرتها على توفير ما يتطلع إليه لتأمين احتياجاته المتعددة تطلب مضاعفة موارده المالية والتي تسهم في توطيد وتعزيز احتياجات مواطنيه الأمنية والمعيشية والتعليمية، غير اننا كنا نتطلع إلى ما هو أبعد من النصوص البلاغية والإبداعية ونحن نفرد تلك المساحات للأمكنة التي لا يتوفر مثيل لها في الكثير من دول المنطقة لتفردها بمزايات وخصائص تجعلها تحتل مكانة عز نظيرها...»

في العدد الجديد تناول د. شعبان بن بوبكر «شعرية التوظيف في شعر الطاهر الهمامي» مجموعة مرثية البقر الضحوك «نموذجا»، وفي مساحة للتأمل كتب نادر الرنتيسي عن «أكثر من الف كلمة»، وتناول د. يوسف وغليسي «العارف بالشعر وشاعر العرفان عبدالله العشي»، أما مفلح العداون فقد كتب في زاويته الشهرية عن «صهوة الانتظار»، وكتبت د. أسماء احمد معيكل عن «العلاقة بين الشرق والغرب والنبوءة المستقبلية في رواية ـ سباق المسافات الطويلة»، وفي زاويته تحدث امجد ناصر عن «الجوائز الأدبية العربية» وخصوصيتها، وتناول د. إبراهيم خليل «حبكة الرواية من المؤلف إلى القارىء»، أما احميدة الصولي فقد انشغل في «قراءة تجربة الشاعر محمد الطاهر الحضري»، وكتب الحبيب السائح عن «عنف النصوص»، أما ميسلون هادي فتناولت «البتراء اعجوبة الزمان»، وضم العدد ايضا النصوص التالية التي كتبها: طراد الكبيسي «الشعر والحرب مطالعة ظاهراتية»، أحمد الخطيب «ودمي نهار بالغ اهلي ـ شعر»، أحمد الخالدي «ختامه عشق ـ شعر»، طالب هماش «كطلعة شمس على ساقية ـ شعر»، د. مهند مبيضين «المعرفة والسلطة في اليمن»، ترجمة سعيد بوكرامي «ميلان كونديرا وتأملات حول الرواية»، د. حسن المودن «كتابة الاحتضار في أوان الرحيل للقاص علي القاسمي»، د. راشد عيسى «أم كلثوم والقصيدة المغناة، د. عبدالسلام المساوي» البحث عن فرس النوايا: قراءة لديوان لا أكاد أرى للشاعر ياسين عدنان «د. عبدالرحمن تبرماسين» التلقي في رواية وراء السراب قليلا ليلى الأطرش «أقمار الأدب ونجوم الفن»، غازي انعيم «رائد الجداريات الملحمية في العالم الفنان المكسيكي ديفيد سيكيروس»، إبراهيم نصرالله «فيلم في موطني للمخرج جون بورمان»، إصدارات جديدة «د. أحمد النعيمي»، غازي الذيبة «بين ثل